الخطاب الشعري القديم
ثنائية التراث والعقيدة

د. أحمد حسن علول جاسم
جامعة بغداد – كلية الآداب
قسم اللغة العربية

المقدمة :

يشكل الخطاب الشعري القديم تراثا ضخما يفخر العرب به وبكل ما فيه ، لكونه يكشف لا شك عن نبوغهم وتفردهم بالادبية الفذة التي عزّ نظيرها بين الامم آنذاك . من جهة اخرى شكّل هذا الخطاب وعيا جمعيا لدى الأمة تمحور في اتجاهين سياسي واخر عقدي. إنّ أول من هله ل الشعر وجعله قصيد هو عديّ بن ربيعة التغلبيّ(ت 49 ق.هـ / 131م)، ولذا سُمّي المهلهل، ولعل أشهر ما قيل على لسان هذا الشاعر مرثيته الثأرية التي يقول فيها:

يال بكرٍ انشروا لي كليبًا .... يال بكرٍ أين أين الفرارُ
يال بكرٍ فاظعُنُوا أو فحِلُّوا .... صرَّح الشَّرُّ وبان السِّرارُ

وذلك في الحرب البتراء الضروس، المسماة بحرب البسوس، التي خلّفت أعواما من القتل والدمار، حتى صارت من الأساطير المؤلمة في حياة العرب .والذي جعلها أسطورة مؤلمة، هو السبب في نشوب هذه الحرب البدويّة بكل ما تعنيه كلمة البداوة. النفس لا تطمئن لما نسمعه ونقرأه عن هذه الحرب التي دامت أربعين عاما، فثمَّة ما يربك العقل ويجعله في حيرة للسبب الذي يقف وراء هذه الحرب من جهة، وما نسمعه ونقرأه أيضا عن الصفة التي انمازت بها العرب من سائر الأمم، وأعني بها صفة التسامح، من جهة أخرى.

فكيف لنا أن نُمنّي أنفسنا، أو نقنع الأجيال بأننا أمة تتغلب فيها صفة التسامح، وفي تاريخنا مثل حرب البسوس، وليتها كانت الوحيدة في تاريخنا القديم، أو ما نقرأه مما كان يفعله عرب الجاهلية والصعاليك فيما بينهم من إغارة وقتل وسلب ونهب .فهل نحن أمةٌ تأكل نفسها ؟! وه بْ أنها البداوة، التي عادة تكون في بداية تكوين الأمم، ولكن ماذا بعد مجيء الإسلام، وهو خاتم الأديان وأوضحها، والإسلام اسم على مسمّى، فاسمه مشتق من السلام والتسامح، والإنسان هو مضمون رسالة الإسلام، فهل حفظ المسلمون مضمون الرسالة بعد وفاة نبيهم (صلى الله عليه وآله وسلم.) إنّ أيام العرب وأحداثها موثّقة في أشعارهم، فالشاعر ابن بيئته، والخطاب الأدبي لأي أمّة يعد وثيقة حيّة لممارساتها وأفعالها، وقديما قيل

الشعر ديوان العرب وسجل مفاخرهم، ولعل الخطاب الأدبي، ولاسيما التراث الشعري الذي جاء مشحونا بالبداوة والتطرف، لا بدّ أنْ يكون قد كمن في الوعي الجمعي للأمة حتى صار يشكل ركنا أساسيا في عقيدتها، ولذا فإنه يقود بالضرورة إلى استنساخ تجربة مريرة، وربما إلى نسخ كل ما هو عقلائي ومتحضر كان قد فعل فعله يوما ما في استقرار المجتمع وتنميته. إن ما تشهده الساحة المحلية والإقليمية والعالمية في عصرنا الحديث من عنف وتطرف ما هو إلا نتاج ذلك الخطاب الذي أصبح مسوغا ومقبولا عند كثير من المفكرين السلبيين على مر العصور، وأحيانا يمثل صورة من صور البطولة لديهم .والغريب أنك تجد في العصر الحديث من يروج لطروحات أولئك المفكرين، الأمر الذي جعل عامة الناس يتقبلون أفكارهم وأحيانا يعملون بها من دون أن يتدبروها. ولا يظن ان ذلك يأتي عفو الخاطر، أو من دون قصد، أبدًا، إذْ لا بدّ أن يكون وراء ذلك التخريب الفكري والنفسي مقاصدًا، سواء من قريب أو من بعيد .وعادة ما يكون الأديب المتزلف ضحية لتلك المقاصد، وأعني بذلك مكانته في المجتمع .وهذا ما نلحظه بوضوح في أدبنا العربي على مرّ العصور، شعرًا ونثرًا، ولاسيّما في التحولات السياسية الكبرى.

والسؤال هنا :هل إن التراث الشعري كان مرحليا يجسد زمانه ومكانه، أم أنه كان تسويقيا يؤسس لقاعدة ويرسم لمنطلقاتها المستقبلية الناس في كل زمان ومكان بين قطبين، قطب يتجاذبه الشرّ، يمثله من رض ي البداوة مستقرّا له .وقطب يتجاذبه الخير، ويمثله من يسعى إلى التحضر والرقيّ واحترام الآخر. أما عملية التجاذب فإنّ ثمّة من يقف وراءها ويؤسس لها، والناس كما يقال على دين ملوكهم .فان صلح حال السلطان صلح حال الرعيّة، وانْ فسد السلطان فسد حال الرعيّة. ولعل أول ما يطمح إليه السلطان الفاسد، تكريس الجهل لدى الرعيّة، ولكي يحقق ذلك فعليه أن يستعين بمن يؤسس لذلك التكريس من وعاظ السلاطين من الشعراء والمفكرين. إن واقعة بدر هي أول واقعة تجسدت بين قطبي البداوة والحضارة، وكان المؤمل لهذه الواقعة من منزلة ان تكون الفاصل الذي يحتكم اليه العقل، ولكن ما حصل على العكس من ذلك، فهي أول صدمة صُدم بها أهل الشر، ولذا فقد كان لهذه الواقعة انعكاساتها المثيرة على مرّ الأزمان .ولعل أبرز تلك الانعكاسات واقعة الطّف وغيرها من الثارات المتتالية لواقعة بدر، وأول تلك الثارات كانت واقعة أُحُد.

لم شعار (يا لثارات الحسين) ليولد من العدم، بل جاء هذا الشعار ردّا على فعل، إذْ أن أول من بدأ الثأر البدو القتلة في واقعة أُحُد .وقد وثق عبد الله بن الزبعرى الشاعر الأموي الذي استنصر لأشياخه هذه الواقعة، وهو يستظهر ما عنده من عصبية لقومه، قائلًا:

ليت أشياخي ببدرٍ شهدوا .... جزع الخزرج من وقع الأسلْ

قد جزيناهم بيومٍ مثله .... وأقمنا ميل بدرٍ فأعتدلْ

لعبتْ هاشم بالملكِ فلا .... خبرٌ جاء ولا وحيٌ نزلْ (١)

وهي من سبعين بيتاً، نال فيها ابن الزبعرى من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ومن المسلمين ما يشفي غليله وغليل قومه . وقد أخذت هذه القصيدة مأخذًا بالغًا من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى انه أم ر بهدر دمه، ولعنه بعدد حروفها. كان باعث ابن الزبعرى فيما صرّح به العصبية القبلية والبداوة الجهلاء، إذْ انه وأشياخه لو كانوا قد أسلموا ربما ما كان لهم أن يفكروا بالثأر، أقول ربما، وإلاّ فإنّ بعض الناس قد لا يمنعهم اسلامهم من ارتكاب المحارم، بل قد لا يمنعهم من سفك الدماء بغير حق أيضا، وهذا ما تحقق فعلا، وتأريخ المسلمين يشهد بذلك. وبعد فتح مكة المباغت، ودخل الاسلام من دخل بين رغبةٍ ورهبة، جعلهم ذلك يبدلون جلودهم ويرجئون الثأر للوقت المعلوم .فما أن انتقل الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى جوار ربه حتى تنكروا لوصيته الكبرى، فقتلوا وصيّهُ، وهم يفخرون بثأرهم، فهذا شاعرهم عمران بن حطان يمتدح أشقى الأشقياء ابن ملجم، قائلا:

يا ضربةً من تقيٍ ما أراد بها .... إلّا ليبلغ من ذي العرشِ رضوانا

إني لأذكره حينًا فأحسبهُ .... أوفى البريةِ عند الله ميزانا

لله درُّ المراديّ الذي سفكتْ .... كفّاه مهجة شرِّ الخلق إنسانا

أمسى عشيّة غشّاه بضربتهِ .... مما جناه من الآثام عريانا (٢)

وليت الثأر انتهى عند هذا الحد، بل يرى أهل الشر، ممن لم تتغلغل مفاهيم الإسلام وحضارته في عقولهم إن سيوفهم ما زالت لم ترتوِ بعدُ من دماء آل محطم أصنامهم وأحلامهم، فإن كانت كربلاء رووا سيوفهم ما استطاعوا من تلك الدماء الطاهرة التي تحمل كل قيم الحضارة. وحُملت الرؤوس من كربلاء إلى الشام، والسبايا، من النساء والأطفال يجوبون الصحاري والقفار زحفا على الأقدام .ودخل حامل رأس الحسين يخاطب خليفة المسلمين!!

قائلا: **املأ ركابي فضةً أو ذهبا .... فقد قتلتُ السيد المحجب**

قتلتُ خير الناسِ أمًّا وأبا (٣)

فتمثل خليفة المسلمين، قول ابن الزبعرى، وبين يديه رأس ابن نبي الإسلام !! ينكأه بمخصرته، جذلان مسرورا، ثم ضمن قوله:

لأهلوا واستهلوا فرحًا .... ثم قالوا يا يزيد لا تشُلْ

فهو يخاطب أشياخه وآباءه من صرعى بدر .فسمعته السيدة زينب (عليها السلام) فأجابته في خطبةٍ جاء فيها ((: وكيف يستبطأ في بغضنا أهل البيت من نظر إلينا بالشّنفِ والشنآن، والإحن والأضغان ... وقد نكأت القرحة، وأستأصلت الشأفة، بإراقتك دماء ذرية

محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ونجوم الأرض من آل المطلب، وتهتف بأشياخك زعمت أنك تناديهم فلتردنّ وشيكا موردهم ولتودنّ أنك شللت وبكمت ولم تكن قلت ما قلت وفعلت ما فعلت ...يوم ينادي المنادي ألا لعنة الله على الظالمين)) . (٤)

فكربلاء إذن هي امتداد لأحد أول ثارات بدر ويتضح ذلك من تمثل يزيد قول شيخهُ ابن الزبعرى .ان ذلك انما يمثل حقيقة روحية الثأر والبداوة لدى هؤلاء، وما انطوت عليه نفوسهم، فهم لم يعوا حضارة الإسلام التي تدعو إلى التسامح، وانما كانوا يصرون على بداوتهم__. وما أن استعلم المؤمنون حقيقة العِرق الأموي، وجرأتهم على سفك دم أبناء نبيهم، جاء ردّ الفعل، بالشعار المدوي والمزلزل للحكم الأموي (يا لثارات الحسين) والسؤال هنا :ما أصل هذا الشعار، ومن أول من رفعه ؟ لم يكن لهذا الشعار أن يولد من العدم، ولم يكن مجرد شعار، وانما كان عنوانا لنهضة ثورية بوجه الظلم، ونهضة التحضر بوجه البداوة . أما أصله فيمكن تتبعه من خلال الأحداث الجارية في اليوم العاشر من المحرم آنذاك. يذكر انه في يوم مصرع الإمام الحسي (عليه السلام) بعض من استشهد اثر سماعه الخبر.

منهم على سبيل المثال :سويد بن عمرو بن أبي مطاع، فعند سماعه بمصرع الحسين (عليه السلام) وقد كان مغشيًا عليه من أثر الجراح، استيقظ على هتاف عمر بن سعد وتهليله بنصره، فنهض على ما به وكان يخبئ سكينا في خُفّه، فأخرجها وقاتل بها حتى التف عليه الأعداء وقتلوه . (٥) وآخر صبي من آلِ عقيل يدعى محمد بن سعيد بن عقيل، كان نائما في خيمته، فبادر أحد الأعداء يقال له لقيط فقتلهُ على أثر خروجه مذعورًا من خيمته (٦) وهناك رجلان آخران هما (سعد، وأبو الحتوف) كانا في معسكر عمر بن سعد، ولكن بعد نهاية الواقعة وارتفاع صراخ الأطفال والنساء، من آل الحسين (عليه السلام) ، حصل أن اهتز وجدان هذان الرجلان وقاتلا حتى قُتلا (٧) . فلم يكن الحر الرياحي وحده إذن من انشق عن معسكر عمر بن سعد لنصرة الحسين (عليه السلام) ، وإنما هناك ثلاثون آخرون ندموا على عدم نصرتهم لإمامهم وابن بنت نبيهم (صلى الله عليه وآله وسلم .) وأيضا امرأة من بني نائل، وهي زوجة أحد القتلة المارقين، ولكن لما رأت الجيش يسلب وينهب ويحرق، أخذت سيفًا وجيشت قومها، وصاحت بهم: يا آل نائل :أتسلبُ حُرمُ رسول الله وأنتم تنظرون، يا لثارات رسول الله (٨) . فكان هذا أول شعار يرفع في يوم العاشر من المحرم، ولذا فيكون هو أصل الشعار الذي رفع فيما بعد بصيغته المعروفة (يا لثارات الحسين.) إن هذه الوحشية قد لا تصدق، والأغرب من ذلك تفاصيلها المروعة .فهل هذا جزاء نبي جاء قومه بالخير ونجّاهم من الهلاك، أم هو النكران والبداوة. لقد تبلور الشعار الذي رفعه بني نائل، وشيئا فشيئاً تمحور في الحسين (عليه السلام) وقضيته الكبرى التي هي قضية المسلمين أجمع .وان أول من رفعه هم التوابون، ولكن هؤلاء تمت تصفيتهم من

الجلاوزة أيضا، إلّا قليل منهم التحق مع المختار الثقفي. وليس العباسيون أقل وحشية من الأمويين والشواهد على ذلك أكثر من أن يسعها البحث فعلى سبيل المثال، ما نلحظه في تهديد عبد الله بن المعتز:

أبى اللهُ إلّا ما ترون فما لكم .... عتابٌ على الأقدار يا آل طالبِ

وإياكُمُ أياكمُ وحذارِ من .... ضراغمةٍ في الغابِ حُمرِ المخالبِ

ألا إنها الحربُ التي قد علمتمُ .... وجرّبتمُ والعلمُ عند التجاربِ (٩)

وان كان بني أمية قد عاصروا النبي وحدث ما حدث، فما عذر العباسيين، ان هذا الإيغال في حرب النبي وآله إنما يفسر لنا ان الناس في كل زمان ومكان ينقسمون على معسكرين، معسكر للشر، وآخر لفعل الخير، وان البداوة قائمة ما قام الإنسان ودام الزمان. وليس الشعراء وحدهم من تبنى نصرة السلطان الجائر وتأسيس البداوة حسب، بل نجد ان كثيرا من المفكرين والفلاسفة والفقهاء قد انخرط في قطب الشّر، ممن أفتى بجواز قتل العترة الطاهرة. ومهما بلغ معسكر الشر من ثقل، فان لمعسكر العقيدة الحقّة المتحضر ثقله الذي يبعث على الاطمئنان أيضا، على الرغم من تلك القصص والوقائع المؤلمة في تأريخ العرب والمسلمين. ولعل أبرز من يتقدم المعسكر المتحضر، الذي عرف الحق وأهله، من الشعراء، هم الفرزدق، والكميت، ودعبل الخزاعي، وأبو فراس الحمداني، والمعري، وديك الجن وغيرهم. فمن قول الكميت في إنصاف الحق وأهله، يقول:

بني هاشم رهط النبي فانني .... بهم ولهم أرضى مرارا واغضبُ (١٠)

وقول الفرزدق:

مقدمٌ بعد ذكر الله ذكرهُمُ .... في كل بدءٍ ومختوم به الكلمُ (١١)

وقول المعري:

أرى الأيام تفعل كل نكرٍ ... وما أنا بالعجائبُ مستزيدُ

أليس قريشكم قتلت حسينا ... وصار على خلافتكم يزيدُ (١٢)

فهؤلاء الشعراء الذين يُسلّمُ لهم العقل بسلامة نهجهم وعقيدتهم لم يسلموا من الطعن عند بعض النقاد فاتهموهم بالزندقة، فأسهموا وعن عمدٍ في التأسيس لتراث أدبيّ أربك الساحة النقدية على مرّ الأزمان، وصار المتلقي في حيرة من أمره، ولاسيما المتخصص الذي لم يجد بدًّا من أن يخضع لمنهج مدرسيّ يكرس لأفكار البغضاء والتفرقة، بل لعل الأمر يزداد سوءًا عندما يصل الأمر سهلا مرسلا إلى المتلقي المعاصر على اختلاف مستوياته الفكرية عبر قنوات الاتصال الحديثة، ولاسيما المغرضة منها، التي تم إعدادها واستثمارها من الماسونية العالمية، وما الفكر التكفيري التخريبي المعاصر إلّا نتاج فكر الشر المتمثل بقطب البداوة . ولذا على الأمة أن تعترف بتاريخها المرير وبالإرث الفكري والأدبي الذي أسس لتدنيها

وتفرقتها، وأن تعي دورها الذي أراده اللهُ لها أن تكون أمة وسطا، وأن تعي حجم الخطر الذي يداهمها، وعلى حملة الفكر الحر التصدي لذلك والتأسيس لحضارة معاصرة، يكون محورها التسامح، وأن لا نكون أمة تأكل نفسها بنفسها .إن دعاة التحضر في العصر الحديث، يجدون في مفهوم (التسامح المتبادل) المعيار الأعلى لخلق الحضارة [١٣]، وعليه لابدّ أولا من توافر الأرضية الصالحة، والأجواء السلمية التي تساعد على تفاعل قيم التسامح، وإن أول ما يشترط في ذلك، ايقاف نزيف الكراهية والحقد، وقطع مصادر العنف والإرهاب، وتجفيف منابع اللاتسامح، والحيلولة دون تدفقها، لا على مستوى الممارسة فقط، وانما اجتثاثها الى الأبد، واتخاذ ذلك فكرا ومنهجا، للحصول على مجتمع يتقبل قيم التسامح ويعمل على تبنيها وتفعيلها والدفاع عنها [١٤] .

هوامش البحث :

---

[١] شعر عبد الله بن الزبعرى، د .يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، 1481 م ، ص 93.

[٢] ديوان الخوارج، جمعه وحققه الدكتور :نايف محمود معروف، الطبعة الأولى 1483 ، دار المسيرة – : 131 132.

[٣] الشاعر هو سنان بن أنس أحد المشاركين في قتل الحسين (عليه السلام.)

[٤] ينظر :بلاغات النساء، ابن طيفور البغدادي، القاهرة، 1418 م 21 : ، وجمهرة خطب العربية الزاهرة، – 1433 .م 126 124 :، أحمد زكي صفوة، ط1 ، ص ٨٢ .

[٥] ينظر :موسوعة كربلاء، د .لبيب بيضون، الناشر مؤسسة الأعلمي، الطبعة الأولى، مج1

[٦] ينظر :المصدر نفسه89 :

[٧] ينظر :المصدر نفسه81 :

[٨] ينظر :المصدر نفسه88 :

[٩] ديوان ابن المعتز، دار صادر، بيروت11 :

[١٠] شعر الكميت بن زيد الأسدي، جمع وتقديم :د .داود سلوم، ج /1 قسم / 2 ص49

[١١] ديوان الفرزدق، دار الكتب العالمية، تحقيق :علي فاعور، الطبعة الأولى، 1487 م381 :

[١٢] ديوان أبي العلاء المعري، اللزوميات، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 236/1.،1441

[١٣] رسالة في التسامح، جون لوك :ترجمة د .عبد الرحمن بدوي، مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد، .الطبعة الأولى61 :

[١٤] التسامح ومنابع اللاتسامح فرص التعايش بين الأديان والثقافات، ماجد الغرباوي، مركز دراسات .– فلسفة الدين، بغداد، الطبعة الأولى77 :